أ ـ هرم سقارة المدرج وملحقاته الجنائزية

شيد هرم سقارة المدرج من أجل مؤسس الأسرة الثالثة وارتبط تشييد تلك المجموعة الهرمية (شكل ١٥) بالمهندس المعماري "إيمحوتب" الذي عاش في أيام حكم الملك زوسر، وأعتقد الإغريق اعتقدوا أنه "اسكلبيوس" آله الطب لمهارته في الطب، ونسب إليه اكتشاف فن البناء بالأحجار المنحوتة، وقد كافأه الملك زوسر اعترافا منه بعبقريته، بأن أذن له بتسجيل اسمه علي قاعدة أحد تماثيله، وهو شرف لم يحظي به الكثيرون غيره طوال التاريخ المصري القديم. واحتفظت قاعدة التمثال بجانب من ألقابه ومنها "خازن ملك مصر العليا والسفلي" ، كبير الرائين" ، وهو من الألقاب التي ارتبطت بكبار كهنة عين شمس ، و "المشرف علي المعماريين"، و "الكاهن المرتل" .

تتميز المجموعة الهرمية للملك زوسر بعدة مزايا نوجزها فيما يلي:-

١ ـ استخدام الحجر علي نطاق واسع لبناء الجزء العلوي من المقبرة، أو في تشييد العناصر المعمارية الأخرى في تلك المجموعة.

٢ ـ الانتقال بالجزء العلوي للمقبرة الملكية من شكل المصطبة المستطيلة إلي هيئة الهرم المدرج.

٣ ـ تقليد خصائص العمارة النباتية واللبنية التي عرفها الأجداد وتنفيذها بالحجر.

٤ ـ اشتمال هذه المجموعة الهرمية علي العديد من العناصر المعمارية التي ليس لها مثيل في العمارة الجنائزية، فضلا عن بعض العناصر الأخرى التي لا يوجد لها مثيل في العمارة المصرية بعامة.

يحيط بالهرم والمباني الملحقة به سور من الحجر الجيري الأبيض الذي قطع في حجم صغير تقليدا لحجم قوالب الطوب اللبن التي كانت تستخدم في البناء في ذلك الحين. ويبلغ طول السور من الشمال إلي الجنوب ٥٤٤ مترا، وعرضه من الشرق إلي الغرب ٢٧٧،٦٠ متراً. وكان ارتفاعه عند تشييده ١٠.٤٠ مترا، ويبلغ سمكه نحو ثمانية أمتار، وحلي السطح الخارجي للسور مشكاوات مدرجة، يتخللها في الجوانب الأربعة ما يمثل خمسة عشر برجا مستطيلاً علي أبعاد غير متساوية، في كل منها ما يمثل باباً مصمتاً مغلقاً ذو مصراعين، فيما عدا البرج الواقع في أقصي جنوب الضلع الشرقي، إذ يحتوي علي مدخل حقيقي يلغ اتساعه مترا واحداً، وكان بمثابة المدخل الرئيسي لتلك المجموعة الهرمية.

يؤدي المدخل إلي بهو يشتمل علي دهليز يبلغ طوله ٥٤ متراً، ويمتد من الشرق إلي الغرب. ويحتوي الدهليز علي صفين من الأعمدة، في كل صف عشرون عموداً، ويعتمد كل عمود علي جدار يصل بينه وبين أحد الجدارين الجانبيين، وقد نحت كل منها في شكل حزمة غير كاملة من الغاب أو الجريد بما لا مثيل له في العمارة المصرية. ويصغر قطر الأعمدة من أسفل إلي أعلي بما يتفق وشكل حزم النبات، وللأعمدة تيجان لا مثيل لها في العمارة المصرية، وربما يمثل هذا التاج الجزء المورق من الغاب، أو ربما كان يمثل رباطاً من ورق الغاب أو سعف الجريد يحيط بجميع عيدان الحزمة فيما عدا ثلاثة منها.

وتقوم هذه الأعمدة علي قواعد مسطحة، يظن أنها كانت تستخدم في المباني المشيدة من اللبن لحماية الأطراف السفلي لحزم الغاب أو الجريد من رطوبة الأرض. وليس من شك في أن المصريين كانوا علي دراية بإقامة الأعمدة المستقلة من الخشب، غير أنه نظرا لحداثتهم في البناء بالحجر، فلم يكونوا علي ثقة بقدرة الأعمدة الحجرية علي حمل أحجار السقف، ولذلك جعلوها تعتمد علي جدران من خلفها (شكل ١٦).

وسقف البهو بكتل حجرية ذات استدرات من أسفل تمثل أفلاق النخيل. (شكل ١٧)، ينتهي البهو من ناحيته الغربية بردهة مستطيلة مستعرضة، يعتمد سقفها علي ثمانية أعمدة، يربط كل

عمودين معا جدار بينهما. ويوجد في نهاية الردهة ممر ضيق يشتمل علي مدخل يمثل باباً نصف مفتوح.

يؤدي هذا المدخل إلي فناء متسع يقع إلي الجنوب من الهرم المدرج. ويوجد في أقصي جنوب هذا البناء مبني يعرف اصطلاحاً بالمقبرة الجنوبية، ويلاصق هذا المبني الضلع الجنوبي للسور المحيط بالمجموعة الهرمية، وهو عبارة عن مصطبة ذات سطح منحني طول ضلعها الممتد من الشرق إلي الغرب ٨٤ متراً. وطول ضلعها الممتد من الشمال إلي الجنوب ١٢ متراً، ويوجد مدخل المقبرة في الجانب الجنوبي منها، وزود المدخل بدرج يفتح في بئر مربعة طول كل ضلع من أضلاعها سبعة أمتار، وعمقها ٢٨ متراً. وفي قاع هذه البئر غرفة مشيدة من كتل مربعة من الجرانيت طول كل ضلع منها ١,٦٠ مترا، وتقع في غربها وشرقها دهاليز وممرات زينت جدرانها بقوالب من القيشاني الأزرق تمثل ستائر الحصير علي الجدران. وزين أحد الجدران بثلاثة مشكاوات في شكل أبواب تواجه الشرق، تحليها نقوش دقيقة تمثل الملك وهو يؤدي بعض شعائر عيد السد. ولهذه المقبرة مقصورة فوق سطح الأرض، يحلي جداريها الشمالي والشرقي من الخارج مشكاوات يعلوها إفريز مزخرف بحيات الكوبرا (شكل ١٨).

ويشير أكثر المشتغلين بدراسة الآثار المصرية إلي أن الغرض من هذه المقبرة أن تكون قبرا رمزيا للملك زوسر بوصفه ملكا للوجه القبلي، ويظن آخرون إلي أنها كانت مخصصة لدفن أواني الأحشاء (الأواني الكانوبية)، وربما كانت مرتبطة ببعض شعائر عيد السد.

وعثر في فناء تلك المجموعة الهرمية في المسافة الفاصلة بين الضلع الجنوبي للهرم المدرج والضلع الشمالي للمقبرة الجنوبية علي بقايا بنائين صغيرين من الحجر علي شكل حرف B ، ويحتمل أن يكونا علي صلة بشعائر العيد الثلاثيني. وشغل الجانب الشرقي من الفناء في المساحة الواقعة إلي الجنوب من الهرم المدرج و إلي الشمال من دهليز المدخل بمبني صغير يطلق عليه اصطلاحاً جوسق اليوبيل أو (القصر). ويظن بأن له صلة باحتفالات العيد الثلاثيني (الأشكال ١٩-٢١)، وربما كان مخصصا لكي يقوم الملك بتغيير رموزه في داخله وأخذ رموز جديدة تتفق والإله الذي ستؤدي الشعائر أمامه. وقد تهدم هذا المبني وتبقي منه بعض العناصر المعمارية، ومنها ثلاث أعمدة مضلعة قائمة وسط المبني. وتدل بقاياها علي أن السقف الحجري للمبني كان مدهونا

بالون الأحمر تقليدا لافلآق النخيل. واحتفظ المبني ببعض الأبواب الحيوية الثابتة التي تمثل أبواباً نصف مفتوحة. وشكلت الزوايا الخارجية للجدران باستدارة لتحاشي اصطدام الملك المهرول لتأدية شعائر الاحتفال بالعيد الثلاثيني بزوايا المبني الحادة.

وإلي الشرق من جوسق اليوبيل (القصر)، توجد بقايا معبد أصطلح علي تسميته بمعبد العيد الثلاثيني أو بهو الاحتفالات، ويوجد المدخل إلي هذا البهو أو المعبد في أقصي جنوب جداره الغربي. وكان يحتوي علي صفين من الهياكل علي امتداد ضلعيه الشرقي والغربي اللذين

يتوسطهما فناء المعبد. و كان لكل هيكل من الهياكل المقامة أمام الجدار الشرقي مدخل صغير يؤدي إلي غرفة فيها مشكاة، وكانت واجهات الهياكل المقامة أمام الجدار الشرقي بسيطة غير مزخرفة، أما واجهات الهياكل المقامة أمام الجدار الغربي فقد زين كل منها بثلاثة أعمدة مضلعة ترتكز علي الواجهة، بحيث يعلو العمود الأوسط الآخرين المجاورين. ويعلو الأعمدة الثلاثة إفريز بارز مقوس. وكانت الأسقف منحنية. وتيجان تلك الأعمدة فريدة في العمارة المصرية، إذ كان بكل عمود ثقب يخترقه، وسوي سطح الحجر أعلي هذا الثقب، ومثل علي كل جانب من الجانبين ما يشبه ورقة من أوراق النبات، ويوجد ثقب أخر أسفل الثقب الأول، ومن أسفلهما يوجد نتوءان في العمود. وربما كانت تلك الثقوب مخصصة لتثبيت السواري التي كانت تحمل ألوية الآلهة. وزود فناء المعبد من جهة الجنوب بقاعدة حجرية كبيرة، ربما كانت مخصصة لوضع عرشين متجاورين، أحدهما للملك كحاكم لمصر العليا والأخر له كحاكم لمصر السفلي. وتبقت مشكاة في الجانب الشمالي من المعبد، واحتفظت بثمانية أقدام لتماثيل أربعة أشخاص، ربما كانت تمثل الملك والملكة وأثنين من أبنائهما.

ويوجد إلي الشمال من بهو الاحتفالات مبني يعرف باسم "مبني الجنوب"، وكان يحيط به سور خاص وله فناء أمامي. وتزين واجهة المبني أربعة أعمدة مضلعة تتصل بالواجهة المقوسة في أعلاها. والمبني مصمت في مجمله، وتشغل الفراغات تشغل حيزاً ضئيلاً منه. يبدأ أول هذه الفراغات بدهليز ضيق يمتد من المدخل الموجود في واجهة الجدار الجنوبي من المبني، ويؤدي الدهليز إلي مقصورة في جدرانها مشكوات صغيرة. ويوجد جدار يتعامد علي الطرف الشرقي للمبني يمتد جنوباً (الأشكال ٢٢ ـ ٢٣)، وكانت واجهته محلاة بأعمدة ربما كانت لها تيجان محلاة بورقتين متدليتين من أوراق النبات (شكل ٢٤)، وبه مقصورة جانبية صغيرة.

يوجد مبني أخر إلي الشمال من مبني الجنوب يعرف باسم "مبني الشمال" (شكل ٢٥). والمبنيان متشابهان في تخطيطهما وفي أكثر زخارفهما، ويتميز مبني الشمال عن مبني الجنوب في تزيين الجدار الشرقي المتعامد علي واجهة المبني والممتد إلي الجنوب بثلاثة أعمدة في شكل غصن بردي بزهرة يانعة. ومن المعروف أن نبات البردي كان رمزاً للشمال. ويخلو هذا المبني أيضا من المقصورة الجنوبية التي أشتمل عليها مبني الجنوب في جداره الشرقي المتعمد علي الواجهة. وربما كان المبنيان يمثلان بهوين أو قاعتي عرش لكل منهما هيكل من غاب أو خشب وجدران من حصير أو أعواد نبات، وجدار أمامي قليل الارتفاع يسمح بدخول الضوء. وربما كان الملك في العصور الأقدم يستخدمها في إدارة شئون القطرين، أو في القضاء بين الناس، وربما كان هذين المبنيين مرتبطين باحتفالات عيد السد أو العيد الثلاثيني.

وعيد السد يرجع في أصله إلي عادة قديمة تقضي بالا يسمح للحاكم بأن تزيد مدة حكمه علي ثلاثين عاماً، فإذا أتمها كان يقتل لارتباط خير القبيلة بالحالة الصحية للحاكم ومدي حيويته، وخاصة فيما يتعلق بالمحاصيل الزراعية وقطعان الماشية. والراجح أن المصريين الأوائل في عصور ما قبل التاريخ قد مارسوا هذه العادة، وتخلصوا منها منذ أن خرجوا من جهالة هذه العصور البدائية، وأصبح بإمكان الملك أن يطيل مدة حكمه بأداء بعض الشعائر التي تعينه علي تجديد حيويته وشبابه. وربما كان من بين شعائر هذا الاحتفال أن يؤدي الملك رقصات عنيفة أمام بعض الآلهة مقدماً لهم بعض الرموز المرتبطة بكل منهم، حتى إذا ما أقتنع هذا الإله بصلاحية

الملك للاستمرار في الحكم فيعدو الملك للجلوس علي أحد عرشي البلاد. ولم يكن أكثر الملوك ينتظروا حتى يتموا فترة الثلاثين عاماً في حكم البلاد قبل أن يحتفلوا بهذا العيد، ومن ذلك أن الملك زوسر قد احتفل بهذا العيد رغم أن مدة حكمه لم تزد علي تسعة عشرا عاماً.

توجد غرفة صغيرة إلي الشمال من الهرم المدرج بجوار الجانب الشرقي للمعبد الجنائزي، وتعرف هذه الغرفة بالسرداب، وهو المصطلح المستخدم لبيت التمثال. وهي غرفة صغيرة ليست لها

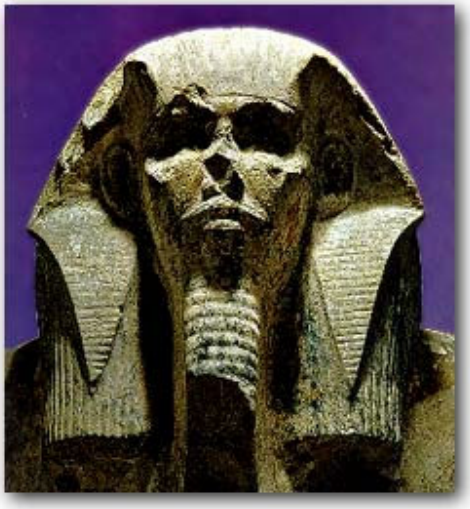

أبواب أو نوافذ مشيدة من الحجر الجيري. ومثل مصراعا الباب علي جدارين يمتدان أمام السرداب كما لو كان مفتوحين، وتتجه واجهة السرداب نحو الشمال، حيث كان يعتقد بأن أرواح الملوك تتواجد بين نجوم الشمال. وفتحت في واجهة السرداب فتحتان لا تحازيان عيني التمثال تماماً، وربما قصد منهما أن يتيحا للتمثال أن ينعم بما كان يحرق من البخور قبل أداء الشعائر في المعبد الجنائزي.

وقد عثر بداخل السرداب علي تمثال للملك زوسر من الحجر الجيري بحجم طبيعي يمثله جالساً علي العرش وملتحفاً بعباءة سابغة لا يظهر منها غير اليدين والقدمين. وصور التمثال الملك وعلي رأسه الشعر المستعار بطول الكتفين وذقن مستعارة، ويضم التمثال اليد اليمني إلي الصدر،علي حين يبسط اليد اليسرى علي الجزء الأعلى من الساق اليسرى.

يتوسط المجموعة الجنائزية هرم مدرج مؤلف من ست درجات أو ست مصاطب تعلو إحداهما الأخرى. قاعدة الهرم مستطيلة الشكل، يمتد محورها الطولي من الشرق إلي الغرب، ويبلغ طولها نحو ١٤٠ متراً وعرضها نحو ١١٨ متراً، ويبلغ ارتفاع الهرم نحو ٦٠ متراً (شكل ٢٦) .

ويبدو أن هذه المقبرة الملكية لم يكن مخططاً لها في الأَصل أن تتخذ شكلاً هرمياً مدرجاً، ويرجح أنها صممت أولاً في شكل مصطبة مربعة يبلغ طول كل ضلع م أضلاعها نحو ٦٣ متراً وترتفع فيما بين أربعة وستة أمتار، وتميل جدرانها من الداخل من أسفل إلي أعلي. وكانت المصطبة مشيدة بحجر جيري محلي قطع من محاجر سقارة، وكسيت من الخارج بحجر جيري جيد قطع من محاجر طره. وخضعت تلك المصطبة للعديد من الإضافات والتعديلات المتتالية حتى اتخذت في النهاية شكل الهرم المدرج.

وتمثل أول تعديل في إضافة مبان بلغ عرضها ثلاثة أمتار إلي كل جانب من جوانب المصطبة بحيث ظلت القاعدة مربعة الشكل، وبحيث قل ارتفاع الإضافات عن ارتفاع المصطبة الأصلية بعض الشيء. وكان ثاني هذه التعديلات أن أضيفت إلي المصطبة إضافة أخرى في جانبها الشرقي بلغ عرضها تسعة أمتار، فأصبحت المصطبة بذلك مستطيلة الشكل، يمتد محورها الطولي من الشرق إلي الغرب. وقبل أن تكسي المصطبة من الخارج بالحجر الجيري الجيد أجري تعديل ثالث، تمثل في إضافة ثلاثة أمتا تقريبا إلي كل جانب من جوانب المصطبة، وشيدت فوقها ثلاثة مصاطب أخرى مائلة. وتحولت المصطبة بذلك إلي هرم مدرج ذو أربع مصاطب، وبلغ ارتفاعه حينذاك ٤٣ متراً، وبدأ تشييد المعبد الجنائزي إلي الشمال من الهرم المدرج، وقبل الشروع في كساء الهرم من الخارج أجري تعديل رابع علي الهرم حيث ازداد امتداد الهرم من جهاته الشمالية والغربية، وأضيفت عليه مصطبتان أخرتان ليصبح هرم مدرج من ست مصاطب مائلة. وكان التعديل الخامس والأخير هو إضافة مبان أخرى في كل جهة من جهاته الأربع، ثم كسي الهرم من الخارج بكساء من الحجر الجيري الجيد.

أما الجزء الواقع تحت سطح الأرض، فقبل أن تشيد المصطبة الأولي قطع بئر في الصخر عمقها ٢٨ متراً وطول كل جانب من جوانبها سبعة أمتار. وشيدت غرفة دفن مستطيلة من حجر

الجرانيت أسفل هذه البئر، وقطع دهليز يتجه نحو الشمال، يزيد طوله قليلاً عن العشرين متراً، بحيث يكون مدخل هذا الدهليز خارج مبني المصطبة الأولي، ويفتح في البئر أعلي غرفة الدفن مباشرة. أما غرفة الدفن نفسها فلا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق فتحة مستديرة في سقفها، وتوجد هذه الفتحة في داخل غرفة أخرى فوقها، وكانت من الحجر الجيري وقد تهدمت الآن. وكانت هذه الفتحة مسدودة بكتلة كبيرة من حجر الجرانيت تزن اكثر من ثلاثة أمتار وترتفع إلي مترين تقريبا.

وتوجد في مستوي غرفة الدفن أو بالقرب من جوانب البئر أربعة دهاليز طويلة محفورة في الصخر، تؤدي ثلاثة منها إلي عدة مخازن، ويؤدي الدهليز الرابع إلي عدة قاعات، منها أربع قاعات كسيت جدرانها بقوالب صغيرة من القراميد (القيشاني) الأزرق، وهي تشبه في شكلها العام الحصير الذي كان يغطي جدارن القصر الملكي. ويوجد في أحد الجدران ثلاثة مشكاوات تمثل أبواباً وهمية تواجه الشرق، وتحليها نقوش منفذة بدقة، تمثل الملك زوسر وهو يؤدي بعض شعائر عيد السد، وسجل اسم الملك زوسر وألقابه علي أطر تلك الأبواب.

وعندما أستقر الرأي علي بناء مصاطب أخرى فوق المصطبة الأصلية، وما تبع ذلك من إضافات في مختلف الاتجاهات بما في ذلك الجانب الشمالي من المصطبة، ترتب علي ذلك أن سد المدخل الأصلي الذي كان يؤدي إلي غرفة الدفن، ومن ثم قطع مدخل جديد إلي جهة الشمال أيضاً، وهو أبعد من المدخل الأول ويقع داخل حرم المعبد الجنائزي، ويبدأ بدرجات سلم ثم يمتد الدهليز حيث يلتقي بالدهليز الأقدم قرب نهايته علي بعد مسافة قليلة من غرفة الدفن.

وقد دفن بعض أفراد أسرة الملك زوسر قرب هرمه، إذ يوجد أحد عشر بئرا في الجانب الشرقي من الهرم، ويبلغ عمق كل منها أكثر من ٣٢ متراً، ويمتد من قاع كل منها دهليز يتجه ناحية الغرب تحت المصطبة الأصلية. وقد عثر في أحد هذه الدهاليز علي تابوتين من المرمر بداخل إحداهما مومياء لطفل صغير. ويبدو أن هذه الآبار قد قطعت في مرحلة مبكرة من العمل في الهرم المدرج، حيث غطتها الإضافات والتعديلات التي أدخلت علي الجانب الشرقي من الهرم.

أما المعبد الجنائزي (شكل ٢٧) فيوجد في شمال الهرم مجاوراً للسرداب، وكان مخصصاً لأداء الشعائر الجنائزية للملك المتوفى ولتقديم القرابين. ويوجد مدخل المعبد الجنائزي في أقصي جنوب

الجانب الشرقي من المعبد، ويؤدي إلي مجموعة دهاليز تحيط بالمعبد من جهاته الشمالية والغربية والشرقية. ويتوسط المعبد فناءان، زودت الواجهة الداخلية لكل منهما بأربعة أعمدة مقناه يصل بين كل أثنين منها جدار، ويتخللها ثلاثة مداخل تؤدي إلي الأجزاء الداخلية للمعبد حيث قدس الأقداس الذي يرتكز علي الهرم، وكان بجداره الجنوبي مشكاتان. ويشغل الجانب الغربي من المعبد في جزئيه الشمالي والجنوبي مجموعتين من الدهاليز القصيرة التي يؤدي كل منها إلي قاعة يوجد في أرضيتها حوض كان مخصصاً لماء الغسل. وربما كان في اشتمال المعبد الجنائزي علي فناءين وقاعتين للاغتسال ومشكاتين في قدس الأقداس ما يشير إلي ازدواجية الشعائر التي كانت تؤدي فيه للملك المتوفى،